

دراسة حول الخيول العربية للأمير عبد القادر ودلالاتها الثقافية والانسانية

عبد الكريم الماجري⁽¹⁾

مقدّمة

تمكن الأمير عبد القادر بن معي الدين الحسني¹ من إجبار قادة الجيوش الأوروبية لمدة خمس عشرة سنة (1832، 1847) على التفاوض في مناسبتين (1834 و1837) والاعتراف به كسلطة سياسية تتمتع بالسيادة الكاملة على الجزء الأكبر من التراب الجزائري وسكانه². نظرا لخصوصية هذه المقاومة؛ ركّز المعاصرون في كتاباتهم على الجوانب العسكرية والتنظيمية والسياسية المتعلقة "بأيقونة الأمة الجزائرية" (François, 2014). وتواصل اهتمام المؤرخين بحركة المقاومة للأمير عبد القادر ومراحلها، باعتباره كان رائدا للكفاح المسلح ومؤسساً لأول دولة وطنية بالجزائر (بوعزيز، 1983).

إن الجدير بالذكر أنه لا يمكن اختزال شخصية الأمير عبد القادر، في حركة المقاومة للاحتلال الفرنسي، باعتباره شخصية ضليعة بالعديد من المجالات، مما يُوجب الإشتغال

⁽¹⁾ Université la Manouba, Facultés des Lettres, des Arts et des Humanités - Tunisie.

¹ كثيرا ما كان يختم الأمير عبد القادر رسائله بكتابة اسمه مقرونا باسم أبيه، وربما كان ذلك ناجما عن ولائه التام لوالده. ينظر: سعدالله أبو القاسم، (1978م). أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص. 128-133.

² يمكن الرجوع لإتفاقية ديمتسال Desmichels (1834). ومعاهدة التافنة مع بيجو (1837) Bugeaud. يمكن الرجوع الى:

بوعزيز، يحي (1983م). الأمير عبد القادر، رائد الكفاح الجزائري. تونس: الدار العربية للكتاب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

- Churchill, C.- H. (2006). *la vie d'Abdel -kader*, introduction, traduction et notes, Alger : Michel Hebart, Enog édition.

- Kaddache, M. (1974). *la vie de Abd el kader*. Alger : (coll, art et culture).

علمها انطلاقاً من زوايا مختلفة وبمقاربات متنوعة، لتقديم صورة قريبة من حقيقة هذه الشخصية وكشف ما لحق بها من تشويهات تعمدتها الكتابات العسكرية الأولى للمستعمر وتم ترسيخها على مستوى تصورات المجتمع الفرنسي حينها (عدنان، 2010) واستمرت حتى اليوم عن قصد من طرف بعض الفئات.

اشتغلنا ضمن هذه الورقة البحثية على تقديم إحدى سمات شخصية الأمير عبد القادر باعتباره كان ضليعا بالحضارة العربية. إلى جانب إبراز البعد الإنساني لديه - أي الأمير عبد القادر - خاصة في تعامله مع الآخر سواء كان من بني جلدته أو أقاربه أو حتى الأجنبي، في زمني السلم والحرب لدحض صفات الجهل والغلظة والتعصب التي نسبتها له بعض الكتابات (الحدشي، 2014)، كما قدمنا مساهمته في علم الخيل والتي أثرى بها المكتبة الفرنسية ومكتبات أخرى في هذا المجال، وهو ما يعتبر جوهر موضوعنا³.

ومنه تساءلنا: ماهي مساهمة الأمير عبد القادر حول الخيول العربية؟ وما الذي تعنيه هذه المساهمة ثقافياً وإنسانياً؟

الجنرال أوجين دوما⁴ Le Général Eugène Daumas والأمير عبد القادر
وانتاج علمي مشترك

تطور العلاقة بين رمزي الاحتلال والمقاومة

نشر تولى فرنسوا بيون⁵ François Pouillon خلال سنة 2008 كتاب "خيول الصحراء وعادات البيداء" لـ "أوجين دوما" واضعاً اسم الأمير عبد القادر وأوجين دوما كمؤلفين

³ تمت ترجمتها إلى اللغة الألمانية والإنجليزية والإسبانية.

⁴ الجنرال أوجين دوما، عسكري فرنسي (1803-1871). تحول دوما إلى الجزائر سنة 1835 ضمن فرقة الخيالة، وعلى إثر معاهدة التافنة سنة 1837 عُين قنصلاً (وكيلاً) معتمداً لدى الأمير عبد القادر بمدينة معسكر. وبعد نقض المعاهدة تقلد دوما عدة وظائف مكنته من الاتصال المباشر مع الأهالي، استغلها لجمع معلومات كثيرة عن المجتمع الجزائري في شتى المجالات ودونها في عدة كتب منها كتاب "خيول الصحراء وعادات البيداء". Les chevaux du Sahara et les mœurs du désert.

إنهت مهامه بالجزائر بنهاية Bugeaud فرجع إلى فرنسا وشغل عدة وظائف وتقلص نفوذه في السلطة بصفة تدريجية. توفي سنة 1871 تاركاً عدة مؤلفات مونوغرافية حول مواضيع ومناطق جزائرية عديدة.

⁵ فرنسوا بيون François Pouillon أنثروبولوجي فرنسي، متحصل على دبلوم فلسفة من السربون سنة 1967، وبعد التدريس بمدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية (EHESS)، أصبح مديراً للدراسات، له كتابات عديدة ومتنوعة حول المجتمعات العربية والاستشراق. ونظراً لاهتماماته بالعالم العربي والاسلامي، فقد أفادنا كثيراً بتحقيقه لهذا الكتاب، كما وضع لنا بكل موضوعية مساهمة الأمير عبد القادر القيمة في كتاب "الجنرال أوجين دوما حول الخيول".

لهذا الكتاب، مضيفا عنوانا آخر "حوار حول علم الخيول العربية"

Émir Abd el-Kader

Général Eugène Damas

Dialogues sur l'hippologie Arabe, Les chevaux du Sahara et les mœurs du désert, Art equestre, Actes Sud, 2008.

قد يتساءل القارئ من الوهلة الأولى عن سبب إدراج اسم الأمير عبد القادر كمؤلف لهذا الكتاب إلى جانب الجنرال أوجين دوما في حين أنه لم يكتب ولا رسالة واحدة باللغة الفرنسية.

ومن ناحية أخرى لم تذكر المصادر والمراجع التي أطلعنا عليها تأليفا واحدا للأمير عبد القادر يتعلق بعلم الخيل رغم أنه كان مولعا بالصيد وركوب الخيل وحب الطبيعة. وهي خصال عربية قديمة، فقد كان حذقا متفننا في ركوب الخيل وهذا ما ورد في الكثير من الدراسات المترجمة حول حياته. (أبو القاسم، 1978، ص. 129).

ومن بين منشوراته :

- المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الاسلام من أهل الباطل والاحاد

- ذكرى العاقل وتنبيه العاقل

- المواقف

- بعض الرسائل المتضمنة لأجوبة عن أسئلة متعددة من مختلف الاعراض وشتى الفنون (بو عزيز، 1983).

- ومجموعة من الأشعار (Encyclopédie de l'Islam, 1991).

حاول François Pouillon، عند تقديمه لهذه الطبعة الجديدة الإحاطة بكل الملابس التي جعلت من الأمير عبد القادر مشاركا فعليا في هذا الإنتاج الفكري، مبينا طبيعة علاقة الشخصيتين منذ بدايتها سنة 1837، عندما عُيّن أوجين دوما وكيلا (أو قنصلا) لدى الأمير عبد القادر. ولما نُقضت معاهدة التافنة.

وعندما نُقل الامير عبد القادر إلى برج لامالاق Lamalgue بـ "تولون" Toulon سنة 1848 انقطعت علاقتهما التي تلتها زيارة من الجنرال أوجين دوما المقيم بباريس للأمير عبد القادر بمقر إقامته في محاولة منه لإقناعه بالتخلي عن المطالبة بالسفر إلى المشرق⁶. حيث

⁶ لقد تعرض بول أزان Paul AZan الى المأمورية التي كلف بها الجنرال أوجين دوما Eugene Daumas ومدة

دامت إقامته ثلاثة أشهر استغلها، من خلال الحوارات والنقاشات اليومية مع الأمير عبد القادر، لإثراء معارفه حول الحضارة العربية الإسلامية⁷. من المرجح أن الجنرال كان حينها يفكر في تأليف كتاب حول الخيول العربية، فاستقى معلومات كثيرة من المخزون الثقافي للأمير عبد القادر المولع بالخييل العارف بأصلها ومكانتها عند العرب، كيف لا يأخذ عنه معلومات قيمة وهو الذي قاد الحرب ضد الجيش الفرنسي لخمسة عشرة سنة جال وصال خلالها العديد من مناطق الجزائر والمغرب الأقصى دون أن يكل أو يمل ركوب الخيل⁸.

مما أثرى معطياته حول الخيول المعرفية، علما أن ما دونه حول خيول الصحراء في نسخته الأولى⁹، كان نتيجة لمشاهداته الميدانية والشهادات الشفوية التي أدلى بها مالكو الخيول والذين كانوا يعملون تحت أمرته.

الجدير بالذكر، أنه من الصعب علينا الفصل بين المعلومات المتحصل عليها من الحوارات، التي أجراها الجنرال أوجين دوما مع الأمير عبد القادر والتي جمعها من الميدان، لكننا نستدل أحيانا على بعض العبارات المصطبغة بأسلوب الأمير عبد القادر، خاصة وأن النقاش بينهما غالبا ما يكون متعدد المجالات سواء في التاريخ، السياسة، الفلسفة والدين إذ يؤكد بول أزان ذلك ويذكر أن الجنرال كان حريصا على تسجيل أفكار الأمير عبد القادر بكل دقة (Azan, 1925).

من المحتمل أن الجنرال أوجين دوما لم يتمكن من الفصل بين المعطيات التي جمعها حول الخيول من الميدان وما أخذه عن الأمير عبد القادر، ورغم ذلك أكد ضمن الطبعة الثانية لكتابه كل ما تحصل عليه من الأمير عبد القادر والذي أدرجه تحت عنوان: "ملاحظات الأمير عبد القادر" Observations de l'emir Abd el -Kader.

إقامته بتولون والحياة اليومية للرجلين ينظر :

Azan, P. (1925). *Recits d'Afrique, l'Emir Abd el-Kader, du fanatisme Muslman ou patriotisme français*, Paris : Librairie Hachette.

⁷ Idem, pp. 46-47.

⁸ ينظر : حول هذه المسألة من عرفه عن قرب وشهد حبه لركوب الخيل، أمثال ليون روش.

Roches, L. (1884). *trente-deux ans en Terre d'islam (1832-1864)*. (T. 1), Algérie-Abd-El-kader paris, Librairie du Firmin Didot et Cie, Paris.

⁹ سنرى فيما بعد كيف تغير محتوى الكتاب بما أُدخل عليه من مراجعات وإضافات، كان للأمير عبد القادر دور كبير فيها.

مساهمة الأمير عبد القادر في إثراء كتاب "خيول الصحراء وعادات البيداء"

باعتبار الجنرال أوجين دوما كان ضمن فيلق الخيالة وعلى اطلاع كبير بأهمية الخيول كوسيلة نقل ضرورية وكأداة فعالة في الغزوات وفي المقاومة. وعرف بعد حلوله بالجزائر واتصاله بالأهالي رمزية ملكية الخيول وما تضيفه من رفعة اجتماعية للملكية، استغل فترة تركيز المكاتب العربية لجمع معلومات حول الخيول وصاغها في كتاب نشر سنة 1851 (Chamerot, 1851) بعنوان "خيول الصحراء". وقد وجد هذا الكتاب رواجاً منقطع النظير لدى المولعين بالخيول من المدنيين والعسكريين نشر الجنرال أوجين دوما مجموعة من الرسائل التي وردت كمدح له حول كتابه ضمن تسع طبعات لاحقة (Emri Abd el-Kader et Daumas, 1869) حين نشرت سبع طبعات كان الجنرال أوجين دوما على قيد الحياة في حين نشر الطبعتين الأخيرتين بعد وفاته، (Emri Abd el-Kader et Daumas, 1869). مما أسهم في ترجمة الكتاب إلى اللغة الألمانية والإسبانية والإنجليزية حيث أصبح عدد صفحاته 544 صفحة بعد أن كانت 340 صفحة فقط، باعتبار الإجابات التي قدمها الأمير عبد القادر على أسئلة الجنرال أوجين دوما قد أُضيفت له ومنذ 1855 تغير عنوان الكتاب على النحو التالي :

Les chevaux du Sahara et les moeurs du desert

اتخذ الكتاب شكله وحجمه ومضمونه النهائي في الطبعة السادسة سنة 1864. واستمرت عملية جمع المعطيات حول الخيول بينهما في شكل ما بين 1851 إلى غاية 1866 في شكل رسائل من بينها ستة رسائل ذكر "فرانسوا بيون"، باستثناء آخر رسالة أرسلها من دمشق، ثم نشرها في مجلة فرنسية في مارس سنة 1867 (Pouillon, 1867) وفي كتابه الحياة العربية (Daumas, 1869) معتقداً أن الجنرال أوجين دوما أدرجها في كتابه (Emir Abd El-Kader et Daumas, 1869)

كما تمكن "فرسنوا بيون" من تحديد إضافات الجنرال أوجين دوما في كل طبعة جديدة للكتاب ونشر في الملاحق رسالة الأمير عبد القادر مترجمة "le cheval deguerre" ودراسة قصيرة حول الخيول باللغة العربية¹⁰. سنذكر هذه الإضافات إلى جانب ما جاء في كتاب "خيول الصحراء وعادات البيداء الأمير عبد القادر العالم :

¹⁰ Le cheval de guerre publié dans la Revue des deux mondes, 15 mars 1855.

ونشره فرانسوا بيون في الملاحق، صص. 529-519.

"دراسة قصيرة في علم الخيل" تتبعها أجوبة عن أسئلة أوجين دوما

"علم الخيل" وما جادت به ذاكرة الأمير عبد القادر بحصن الأمبواز بفرنسا

عُرف عن الأمير عبد القادر ولعه بالقراءة والاطلاع على الكتب والحرص على جمعها والمحافظة عليها لذلك كانت مكتبته ثرية ومتنوعة (سعد الله، 1978، ص. 129). كان ذا ثقافة واسعة في العديد من العلوم وفروع الأدب، ضليع بالمعرفة، قوي الإدراك، من كبار علماء الإسلام (بو عزيز، 1983، ص. 131).

ربما تبدو هذه الأحكام والملاحظات الصادرة عن مؤرخين جزائريين، أبو القاسم سعد الله ويحي بو عزيز، مجرد إطرء لشخص الأمير عبد القادر، ولكن في الحقيقة ملامح شخصيته تبرز فيما كتبه الأمير من رسائل وجهها إلى صديقه الجنرال Dumas.

اشتملت أولى الرسائل المؤرخة في أكتوبر 1851 على "دراسة قصيرة حول الخيول"، ترجمها بواسونه المشرف على قصر الأمبواز، وأدرجها الجنرال دوما مجزأة بدء من الطبعة الثانية (Emir Abdel Kader et Daumas, 1869. pp. 578, 565).

رغم قساوة الوضع المعيشي الذي مر به الأمير عبد القادر بدء بالأسر وخيانة القادة السياسيين والعسكريين له إلا أنه لم يتردد في الإجابة عن أسئلة الجنرال أوجين دوما، معتمدا فقط على ما احتفظت به ذاكرته من آيات قرآنية وأحاديث نبوية وروايات وأشعار، بل كان أميناً من الناحية العلمية لا يذكر اسم شاعر إلا إذا كان متأكداً منه كأن يقول مثلاً: قال امرؤ القيس، قال كعب بن مالك، أما إذا كان غير متأكد فيستعمل صيغة المبني للمجهول مثل قوله: قيل عن بعض شعراء الحماسة وقال بعض الحكماء...

تضمن دراستنا عدة عناصر نذكر منها :

- أهمية الخيل ومكانتها عند العرب أصلاً وشرعاً :

"اجتمع لهم فيها حيان، حب من جهة الشرع وحب من جهة الطبع، وكان العرب لمحبتهم في الخيل واعتنائهم بها يجعلون لها أسماء. كما يهبونها لأولادهم. علت مكانة الخيول لدى العرب بما ورد فيها من آيات وأحاديث "الخيول معقود بنواصها الخير" وسميت بالخير في القرآن الكريم".

- ترويض الخيول وتأديبها. نظرا لتشابه طبائعها مع البشر، دعا الرسول إلى معاتبتهما :
"اذ عاتبوا الخيل فإنها تعتب فالخيل مثل البشر تقبل التأديب وتدرك العتاب"¹¹.
- الألوان المستحسنة من الخيل عند العرب، ونعوت الخيل الممدوحة والمذمومة. فما من عضو في الجواد إلا وله حجة محمود وعكسه مذموم. وهنا استحضر الأمير عبد القادر رواية نقلها ابن خلكان عن الأصمعي أنه قال : " حضرت أنا وأبو عبيدة بن الفضل ابن الربيع وزير المأمون بن هارون الرشيد فقال لي : كم كتبت في الخيل ؟ فقلت : مجلدا واحدا فسأل أبا عبيدة عن كتبه في الخيل فقال خمسون مجلدا فقال له : قم إلى هذا الفرس وامسك عضوا منه وسمه فقال لست بيطار وإنما هذا شيء أخذته عن العرب.
- تبدو سعة معارف الأمير عبد القادر وقوة ذاكرته جلية، إذ نجده يسرد الروايات بجزئياتها الدقيقة. فيذكر صفات الفرس المحمود، وما قيل من أشعار في كل عضو من أعضاء الفرس مدحا أو ذما.
- التضمير للجري، والمضمار والمسابقات وأنواعها وموقف المشرع منها.
- أمراض الخيل ومداواتها
- مميزات الفرس الذكر (الحصان) وأنثى الفرس في الجري والقوة والعرب تقول الفرس الذكر أقوى من الأنثى وأجري منها، مرادهم إذا كان أصل الذكر والأنثى واحدا والآن فلا يخفي فضل الأنثى الجيدة على الذكر غير الجواد. قال البخاري : كان سادات العرب يحبون الفحولة من الخيل لأنها أجراءً وأقوى. وأقوى الخيل عند العرب ما أكمل أربع سنوات وبدأ سنته الخامسة. وولدت أمه وهي في هذه السن وأبوه الفحل كذلك. عندما يبلغ السنة السابعة تنقص قوته وتنقص ثلاثان عند السنة الرابعة عشر من عمره ولا تبقى فيه قوة الكرّ والفرّ عند بلوغه عشرين سنة.
- التنسيل والمحافظة على نقاوة النسل.
- حرصت القبائل العربية على المحافظة على النسل الجيد فلا يسمحون باختلاط خيلهم بخيول غريبة عنهم ويحرصون على اختيار العتيق (الجواد العربي الأصيل) من الفحول لتلقيح الفرس وفي هذا الصدد يقول الأمير عبد القادر :

¹¹ فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي، ج 14، ص. 627.

"وكان العرب يختارون الفحل ويبحثون عنه غاية البحث وإذا لم يجد الرجل لأنتاه الجيدة الفحل الجواد الذي يناسبها يتركها من غير ضراب ولو سنتين أو ثلاثا. ويطلب الفحل الجواد ولو من مسافة بعيدة. ومنهم من يجعل على فرج الأنثى قفلا بصنعة يصنعونها، يسمونه التخريص لئلا يأتيها فحل غير جواد على غفلة فيفسد نسلها. لأن خيل العرب تسرح وترعى العشب زمن الربيع وإذا وقع ونزل وضرب فحل غير جواد أنثى جيدة فانهم يبادرون ويغسلون، بطن الأنثى بإدخال أيديهم في بطنها من فرجها مع أدوية يدخلونها الى البطن يفسدون بها ماء الفحل الذي ليس بمرض. كل هذه الممارسات تأتي في إطار المحافظة على اختلاط أنساب الخيول الأصيلة عظيمة على اختلاط انساب خيلهم، فكما لهم غيرة على نساءهم ومحافظة على اختلاط انسابهم، لهم غيرة ومحافظة على اختلاط أنساب خيلهم."

في هذا السياق عُرف عن الكثير من العرب تخصيصهم لسجلات تتضمن شهودا لإثبات نسب خيلهم. فإذا أراد مالكها بيع فرس مثلا كان المشتري على يقين من نسلها بالاعتماد على هذا السجل. لو أخذنا قبيلة عنزة وهي أحد أكبر قبائل العرب باعتبارها تنتشر من الشام إلى بغداد وتملك من الخيول الأصيلة ما يجعل شرائها أمرا صعبا لأن أثمانها باهظة جدا فتباع بطريقتين إحداهما تَقْسيط ثمن الفرس على ثلاثين إلى خمسين سنة وثانيتها دَفْع مبلغ محدد كل سنة الدوام.

يظهر الأمير عبد القادر أيضا بمظهر البيطري لِيُسَهَبَ في الحديث وبدقة عن أفضل فترات التلقيح والولادة وطرق حماية الأصيل من الخيل من الأمراض والمسائل المتعلقة بالتنسيل "عُرف عن العرب أنهم لا يبيعون عسيب الفحل ويستقبحون ذلك ويعتبرونه مخالفا عما طبعوا عليه واشتهروا به من كرم وجود. وإن كان الشرع لم يمنعهم ذلك وأباحه فهم لا يفعلونه، ويجوز في شرع الإسلام كراء عسيب الفحل للضراب على زمان معلوم كيوم وشهر مثلا وعلى مرات معينة كخمس وعشر مثلا. وأما كراؤه على شرط الحمل فهو غير جائز لأنه مجهول، فيمكن أن تحمل الأنثى في مرة واحدة فيكون صاحب الأنثى مغبونا ويمكن ألا تحمل في مرات عديدة فيكون الغبن على صاحب الفحل. ولما كان الأمر على ما ذكرنا، كان عسيب الفحل عزيزا عندهم فتجد الذي يطلبه يتشفع الى مالكة بأصحاب الجاه والنساء. والضراب إذا كثر على الفحل يضره وتحديث فيه أمراض أسهلها الجرب

ويصير منيه دما أحمرًا بعد أن كان ماءً أبيضًا، مثل الأدمي إذا أكثر من الجماع. وإذا كان الفحل مُعدًا للركوب فغاية ما يعطونه للضراب خمس مرات إلى ثمان. أما الإناث قريبة العهد بالولادة كالشهر ونحوه زادوا على العدد السابق باعتبار أن ضرابها يُصلح الفحل. بالنسبة للفحل المصاب بعلّة مانعة من ركوبه فإنه يصبح غير مُعد للركوب لذل يُصَرّحون ضرابه لكل مستحق ولا يحدون له عددًا معينًا في الضراب، أما الفحول التابعة لبيت المال، فإن من عادة الملوك الذين لهم رغبة في مصالح الرعايا يجعلون في كل قبيلة من القبائل المالكة لإناث الخيل فحلاً ينتفعون بضرابه وقت الربيع. ويكون الفحل عند كبير القبيلة وكل من استحقه يأتيه ولا يمنع منه أحد ولا يعطون عليه دراهم إلا شيئًا قليلًا جدًا يعطونه لسائس الفرس. وأفضل الأوقات لإرسال الفحل على الأثني وقت الربيع، لأنه إذا كان في غير الربيع كان الولد ضعيفًا".

يعكس ما قدمه الأمير عبد القادر عن الخيول ولعه بها والذي مثل دافعًا للتعمق في مجالها وحفظ الكثير مما يتعلق بها من آثار أدبية وفقهية وبيطرية، لذلك كانت إجاباته جامعة وشاملة، وأكثر دقة خاصة بالنسبة لأسئلة الجنرال أوجين دوما التي تلاقها في إقامته في بورس ودمشق.

مناقشة وتحليل

بعد أن غادر الأمير عبد القادر فرنسا واستقر بپروس بتركيا، ثم بدمشق استمر الجنرال أوجين دوما بمراسلته للاستفسار عن بعض القضايا التي أثارها كتابه "خيول الصحراء وعادات البيداء". *Les chevaux du Sahara et les mœurs du désert*. وقد أورد فرانسوا بيون François pouillon نصين كاملين، الأول بعنوان حصان الحرب *le cheval de guerre* الذي نشره الجنرال دوما في مجلة فرنسية سنة 1855 وأخذ منه بعض الفقرات دونها في كتابه ومعقبا عليها، مما عسر التمييز بين أفكار الأمير وأفكار الجنرال دوما، أما النص الثاني فهو يتعلق بالجواد العربي الأصيل، تضمن مجموعة أجوبة الأمير

عبد القادر التي أرسلها من دمشق سنة 1867 ولم يدرجها الجنرال أوجين دوما في كتابه، وإنما نشرها في مجلة فرنسية أخرى¹².

¹² *La Revue des deux mondes*, du 15 mai 1855.

تضمن النص الثاني إجابات الأمير عبد القادر، بتسميات الخيل العربية، كما أجب عن أصناف الخيل (الحر، الهجين والبرذون) وطبائعها وأصولها والأوائل ممكن ركب الخيل، أيضا تهجينها الذي نتج عنه وجود صنفين منها... الأصيل والهجين ... مع إعطاء أمثلة علمية لعملية التهجين. ثم تولى الإجابة عن تأثير الوسط الطبيعي (المناخ) على نوعية الخيول واستعرض مختلف المناطق المناخية ونوعية الخيول المرادفة لها، وتدرج في الإجابة عن تغذية الخيول، وشرابها وتأثير ذلك على سلامة الجسم ومدى تحمل الفرس للجوع والعطش وبذل الجهد، وأكد على أهمية توفير الحليب للفُلُو حتى يكسب القوة اللازمة مع وجوب الاعتدال في شرب الحليب، ومنها تحدث عن استعمال الخيول. وأثار مرة أخرى مسألة التنسيل وكيف تجنب العرب، تلقيح الخيل من نفس أفراد العائلة، مثل ما حرم الله ذلك على الانسان، فلا يجوز للأب أن يتزوج ابنته، والابن أمه.

وإن كان الأمير عبد القادر قد أجب في هذه الرسالة عن أسئلة طرحها عليه الجنرال دوما، دون أن يذكرها الأمير، فإن النص الأول اشتمل على ستة أسئلة أوردها الأمير مرفقة بالإجابة عنها. مما يبرز السمة العلمية للأمير عبد القادر ومدى معرفته بالخيول فتحدث عن الوراثة، أي ما يرثه الفُلُو من الجواد الفحل ومن الفرس مؤكدا أن الفُلُو يتبع الجواد الفحل، وأحسن فُلُو يولد عن حصان وفرس كلاهما من الجياد العربية الأصبيلة. وإذا لم تتوفر هذه الخاصية فيمكن اعتماد التلقيح بين عتيق وهجين، مما يؤدي إلى ظهور تلك الأصناف من الخيول (الهجين والمقرف والبرذون)، وعن تفضيل العرب للأثني الفرس عن الحصان، فالأمير يقدم ثلاثة أسباب لذلك : مادية، وبدنية وصحية.

فأثنى الفرس تلد وتثري مالكمها، وتتحمل أكثر المشقة ولا تستوجب عناية صحية. ورغم هذه الخصال التي تتمتع بها أثني الفرس، يبقى الجواد أفضل منها، ولكن نظرا لما تدره أثني الفرس من خير على مالكمها فإنه لا يفرط فيها بالبيع ويفرح بولادتها، لا كما يدعي من قال أن العرب يحزنون عندما تولد أثني الفرس. لا شك أن هذه الإجابات تؤكد أن الأمير عبد القادر على دراية بعلم الخيل إلى جانب عادات العرب وتقاليدهم وعلاقتهم بالخيول وتربيتها والمحافضة عليها وحبهم لها لما لهم فيها من التباهي والتفاخر والتنافس والتكاثر والقوة والمنحة والعزة والرفعة (1867، pp. 252-264).

ولابد من التساؤل كيف يمكن أن نفهم هذه المراسلات بين أحد رموز المقاومة الجزائرية وأحد رموز الاحتلال الفرنسي، فهل يمكن تفسير ذلك بإنسانية الأمير عبد القادر.

الأمير عبد القادر الانسان

حاول بعض المؤرخين الفرنسيين، وفي مقدمتهم بول آزان Paul Azan، تفسير موقف الأمير عبد القادر من أحداث دمشق 1860 بسمو درجة إنسانيته التي اكتسبها أثناء إقامته بفرنسا (العاديات، 2005)، وكأنه كان متوحشا رافضا للأخر نتيجة لتعصبه الديني وانتمائه إلى حضارة متخلفة مقارنة مع الحضارة الغربية. فما هي حقيقة ذلك ؟

في البداية، نستذكر ما حدث في دمشق في شهر جويلية 1860 وكيف تفاعل الأمير عبد القادر مع هذه الأحداث فمند ظهور قلاقل واضطرابات بجبل لبنان بين المسيحيين والدروز، قام الأمير بمساعي لدى الوالي حتى يمنع وصول الاضطرابات الى دمشق، ورغم ذلك حصلت المذبحة، وتم الاعتداء على مقرات القناصل الأوروبيين، حينها سلّح الأمير عبد القادر الجزائريين لحماية المسيحيين بما فهمم القناصل الأوروبيين وأسكنهم بمقر اقامته وهنا يقول بول آزان Paul Azan :

"وكان مشهد عظيم حيث كان الأمير مارا ومحيطا بالمسيحيين (من رجال دين ويتامى)، ثم تمكن الأمير من التصدي للمهاجرين المطالبين باخراج المسيحيين من منزله. فخرج الأمير ونهرهم ولامهم بعبارات شديدة وذكرهم بالآيات القرآنية الداعية للتسامح والانسانية... وهكذا تمكن الأمير من انقاذ أكثر من 1200 مسيحي." (Azan, 1925, pp. 271-276)

وكان لهذا الموقف الانساني صدى كبير في الأوساط السياسية والدينية الأوروبية، وتمتلك مكافأة الأمير ماديا ومعنويا وأصبح يحظى باحترام وتقدير كبيرين من طرف الحكام ورجال الدين. ورغم أن بول آزان اعترف بأن القرآن يدعو الى التسامح والانسانية، فانه مثل عدد من الفرنسيين، يعتقد أن هذه الشحنة من الانسانية قد اكتسبها الأمير أثناء إقامته بفرنسا وتعرّفه على قيم الحضارة الأوروبية.

للإجابة عن هذا الادعاء استعان ببعض الأوروبيين ممن عايشوا الأمير عبد القادر خلال بعض من مراحل حياته من بينهم "ليون روش" Leon Roches الذي عرف الأمير عبد القادر عن قرب، حيث رافقه في عديد تنقلاته وأقام أحيانا بخيمته وشهد بنفسه تقوى الأمير لدرجة ملفتة مثيرة للإعجاب. فمن يقرأ كتاب ليون روش Leon Roches يدرك بحق درجة التقوى التي بلغها الأمير عبد القادر. هذا ما دفعنا للتساؤل هل فعلا تجتمع التقوى والعداوة للإنسانية في شخص واحد ؟

التقى هنري تشرشل Henry Churchill بالأمرير عبد القادر في المشرق وعاشه مدة طويلة فروى له الأمرير عبر القادر ما دار من نقاش بينه وبين أسقف الجزائر، عبر المراسلات المتبادلة حول تحرير الأسرى. خاصة ما يتعلق بمطلب الأسقف بالإفراج عن أحد السجناء المسيحيين من رجال الدين، دون فدية، رد عليه الأمرير معاتبا قائلا له: "بما أنك رجل دين في خدمة الله وانسان في خدمة الانسانية، كان عليك أن تطلب الافراج عن الأسرى المسيحيين ...، وتحاول انقاذ الأسرى المسلمين.

وبعد تبادل الأسرى في 21 ماي 1841 احتفظ الأسقف بعدد من اليتامى المسلمين، وكان ينتظر احتجاج الأمرير إلا أن هذا الأخير، فاجنه عندما أرسل له قطيعا من الماعز.

علق هنري تشرشل على هذا الموقف قائلا: "لا توجد مثل هذه المعاملات في تاريخ الحروب ويستحيل على القادة المسيحيين النسج على منوال الأمرير. هذا لا ينفي وجود تجاوزات من طرف القبائل التي تضررت من فضائع الاستعمار الفرنسي، فانتمت من الأسرى. لاحظ هنري تشرشل تفوق الانسانية على "الهمجية" تحت تأثير سلوك الأمرير عبد القادر. الذي عامل الأسرى الفرنسيين معاملة الضيوف، كما قدم لهم مساعدات من ماله الخاص. كما وفر لهم الظروف الملائمة لممارسة شعائهم الدينية. وقد طلب من أسقف الجزائر إرسال رجل دين ليصلي بالأسرى المسيحيين ويخفف عنهم قسوة الأسر ويكون واسطة بينهم وبين عائلاتهم ويوفر لهم حاجياتهم المادية. هذه الكلمات تستحق أن تُنقَشَ بماء العين حسب هنري تشرشل.

لم يستثن هنري تشرشل الحديث عن الحرفيين الفرنسيين الذين استقدمهم الأمرير عبد القادر بعد إمضاء معاهدة التافنه وعندما نقضت الاتفاقية واستؤنفت الحرب، طلب هؤلاء الحرفيون السماح لهم بالعودة لبلدهم دون إتمام ما تم الاتفاق على إنجازه، فاستجاب الأمرير عبد القادر لمطلبهم ومكثهم من الرجوع آمنين ودفع لهم كامل المبالغ المالية المتفق عليها (Churchill, 2006).

نستعرض شهادة الجنرال أوجين دوما، حول الاستقبال اللائق الذي خصه به الأمرير عبد القادر عند قدومه الى طولون، صرّح الجنرال أوجين دوما أن الأمرير عبد القادر رجل حرب وإيمان، وباعتباره خسر الحرب فقد اكتفى بالتخفيف عن نفسه بالإيمان. وحسب رأي عدو الأمس فان الأمرير عبد القادر حاول أن يلتمس عنذرا لمن حاربه تحت ضغط ظروف معينة، خلص الجنرال أوجين دوما أن الأمرير عبد القادر رجل راق لا يمكن إرضاءه بذخائر

فرنسا كلها. وفي إطار حديثه عن خصال الأمير عبد القادر تفاجأ بقبول دعوته لتناول العشاء ضمن لقاء يجعهم بضباط فرنسيين، رافقته خلاله زوجته التي تجاذبت معه أطراف الحديث مطولا، وقد لاحظ الجنرال أوجين دوما انزعاج الأمير عبد القادر من تناول البعض الخمر في حضور زوجاتهم¹³.

ومما يدعم فكرة إنسانية الأمير عبد القادر بسجيته، علاقة الود والمحبة التي ربطته مع عدو الأمم الجنرال أوجين دوما والتي تواصلت حتى وفاة هذا الأخير. تلك الصداقة التي انعكست من خلال الحوار المتواصل حول الخيول فأفرزت كتاب يعتبر أطروحة مميزة في علم الخيل.

خاتمة

في حدود اطلعنا على المصادر و المراجع المتعلقة بعلم و ثقافة الأمير عبد القادر، لم أعثر على إشارة واحدة تفيد أنه قد ألف فصلا في علم الخيل hippologie رغم ما عرف عنه من ولع بها واعتماده عليها في حربه ضد الفرنسيين. و يرجع الفضل الى الأنتربولوجي الفرنسي فرانسوا بيون François Pouillon الذي سخر جهدا كبيرا لتحقيق كتاب "خيول الصحراء وعادات البيداء" les chevaux du sahara et les mœurs du desert للجنرال أوجين دوما حيث أنصف الأمير عبد القادر واعتبره مشاركا رئيسا في إعداد هذه "الأطروحة". ومن ناحية أخرى أطلعت على مصدرين أثارا في نفسي حيرة فكرية وهما كتابا محمد، ابن الأمير عبد القادر.

ففي كتابه "تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر"، خصص فصلا كاملا لأجوبة الأمير عن "أسئلة أرسلها اليه الجنرال دوماس الفرنسي" ولم يذكر فيه، ولو تلميحا، الرسائل المتعلقة بالخيول بل اقتصر على التي تناولت مسألة المرأة في الاسلام.

و في كتابه "عقد الأجياد في الصافنات الجياد" لم يذكر المؤلف أنه استفاد من أجوبة الأمير التي أرسلها الى الجنرال دوماس الفرنسي خاصة وأنه نقل حرفيا بعض الفقرات منها وأحيانا المضمون واستفاض فيه، فلم يذكر الأمير إلا في إطار الاستشهاد به كشاعر (في مناسبتين) وكراوٍ (مناسبة واحدة) حيث نقل عنه حديثا عن تأديب الفرس ومدى

¹³ La Revue Africaine, (1955). (442-443). 1^{eme} et 2^{eme} trimestre, 189-190, lettre de Général Eugene Dumas a Rivet, Fort lamalgué, le 29 janvier 1848.

إدراكها للعتاب. وذكر في مقدمة كتابه¹⁴ أنه استقى معلوماته من تلك المجالس، التي حضرها مولاه السيد الوالد، والتي دار فيها الحديث عن الخيل "إذ جرى ذكر الخيل والسلف والخلف فيها من قبل والشيء بالشيء يذكر.. فحاض القوم في أصولها ومالها من الأسماء والصفقات والألوان والشيآت" ثم قال لما حللت بالديار الدمشقية بعد عودتي من فرنسا سنة 1867 "صرفت عنان الفكر إلى تلخيص ما كنت جمعته من تنقيح ما التقطه وجلبته فجاء بحمد الله تعالى كما أردته وعلى النحو الذي انتحيتة وقصدته" وبطبيعة الحال لم يذكر ما استقاه من أفكار والده وهو على علم تام بما حرره الأمير عبد القادر من رسائل في علم الخيل، بما أن "الدراسة القصيرة للخيول" قد تم نقل نسخها العربية عن الطبعة التي تركها محمد، ابن الأمير عبد القادر.

ومن جهة أخرى استغرينا كثيرا مما ورد في "أكبر موسوعة عربية في الخيول العاديات"¹⁵ من تغييب رسائل الأمير عبد القادر وكتاب "عقد الأجياد في الصافنات الجياد" مع أننا وجدنا كثيرا من المعلومات في هذه الموسوعة التي كنا أطلعنا عليها في المصادر التي تم تغييبها.

ومهما يكن من أمر فقد اعترف الكثير من المفكرين والمؤرخين بسعة علم الأمير في شتى حقول المعرفة كما شهد له بمواقفه الانسانية و خير دليل على ذلك ما حصل من حوار علمي طيلة ثلاثة عقود بين الجنرال أوجين دوما أحد أبرز جنرالات الاحتلال الفرنسي وبين الأمير عبد القادر رائد الكفاح المسلح ومقاومة الغزو الفرنسي مما أثمر ذلك الكتاب الرائع حول علم الخيول العربية.

¹⁴ لم أطلع إلا على مقدمة طبعة سنة 1903 التي نقلها الناشر (وزارة الثقافة بالمملكة المغربية) في طبعة سنة 2003، أتمنى أن توجد طبعة أخرى ذكر فيها محمد، ابن الأمير عبد القادر أنه استفاد من رسائل أبيه حول علم الخيل.

¹⁵ العاديات. (2005). أكبر موسوعة عربية في الخيول. (ط. 1). 5 أجزاء، الامارات: مركز الوثائق والبحوث وزارة شؤون الرئاسة.

بيبليوغرافيا

- بوعزيز، يحي (1983). الأمير عبد القادر، رائد الكفاح الجزائري. تونس : الدار العربية للكتاب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،. صص. (133-128).
- الحنشي، سناء (2014م). غزو الجزائر من خلال المصادر غير الرسمية الأدب والرسم (1871-1830). [رسالة ماجستير في التاريخ المعاصر، كلية الآداب والعلوم الانسانية بسوسة (مرقونة)].
- سعدالله، أبو القاسم (1978). أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- المنصر، عدنان (2010). الأمير عبد القادر من مذكرات العسكريين الفرنسيين في الجزائر. المصادر والتمثلات، روافد، (15)، صص. 128-103.
- العاديات، أكبر موسوعة عربية في الخيول. (2005). (ط. 1). مركز البحوث والدراسات والوثائق والبحوث، وزارة شؤون الرئاسة، خمسة أجزاء 12، ص. 4.
- Encyclopédie de l'Islam. (1991). Abd. Al-Kadir B, Muhyi-Eddine Al Hassani. nouvelle édition, (T. 1), pp. 69-70.
- Chamerot, F. (1851). *les chevaux du Sahara*. Paris : F. Chamerot.
- Pouillon, F. (1867, 31 Mars). *La Revue contemporaine*. pp. 252-264.
- Azan, P. (1925). *Recits d'Afrique, l'Emir Abd el-Kader, du fanatisme Muslman ou patriotisme français*. Paris : Librairie Hachette, p. 246.
- Churchill, C.-H. (2006). *la vie d'Abdel -kader, introduction, traduction et notes, Michel Hebart*. Alger : Enog édition, pp. 207-211.
- Daumas, E. (1869). *la vie Arabe et la société musulmane*. Paris : librairie nouvelle, pp. 203-214.
- Emri Abd el-kader & général Daumas, E. *Dialogue sur l'Hypologie arabe*. op. cit, Annexes, lettres adressées à l'auteur, pp. 24. p. 53 et pp. 475-502.
- François, P. (2014). « Abd el kader, icone de la nation Algerienne ». Dans A.-D. Rosenman & L. Valensi. (dir.). *La guerre d'Algerie dans la mémoire et l'imaginaire*. Paris : Bouchène. pp. 87-102.
- Kaddache, M. (1974). *La vie de Abd el kader*. *La Revue contemporaine*, du 31 mars 1867, Alger : coll, art et culture, 252-264.